صورة العدل في رسائل النور
تشخيص معاصر لأوضاع راهنة

د. عبد الهادي دحاني
جامعة شعيب الدكالي/الجديدة
المملكة المغرب

سبحانك لا حكم إلا حكمك ولا عدل إلا عدلك، ولك الحمد والشكر على ما أبدعت من جميل صنعك. سبحانك أنت الحاكم الحكم الحكيم الأزلي الذي نظم هذه الكائنات بقوانين سننه، وعينها بدساتير قضائه وقدره، وأسس بنيانها بأصول مشيئته وحكمته، وزينها بنواميس عنايته ورحمته، ونورها بجلوات أسمائه وصفاته.

سبحانك أنت القادر القيوم السرمدي الذي ما هذه الكائنات بماهياتها وهوياتها وتمايزاتها وتزييناتها وموازينها ومحاسنها إلا من عجائب قدرتك، وأسرار علمك وحكمتك، وأزاهير رياض لطفك وكرمك، وثمرات فيض رحمتك ونعمتك، ولمعات تجليات جمالك وكمالك جل جلالك.

ونشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدك ورسولك، سيد الأولين والآخرين، وهو الرحمة المهداة للعالمين. فاللّٰهم صل وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين[١].

أما بعد فإني مبرز في هذا العرض موضوع العدل وأثره في الحياة البشرية خاصة والكونية عامة، استخرجته من بحر رسائل النور، حيث نظر فيه الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي نظر الحكمة والروية، وعالجه معالجة الطبيب اللبيب، وربطه بتفسير القرآن العظيم، وميز سره السرمدي من بين أسرار أسماء الله الحسنى، وجعله صالحا

---

(١) فيه اقتباس من عبارات المقدمة للرسالة السابعة في المثنوي، المعنونة بزهرة من رياض القرآن الكريم: المثنوي العربي النوري لبديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٥هـ، نشر دار سوزلر، فرع القاهرة: ص٢٦١.

في معالجته لكل زمان ومكان، مستمدا بذلك هذه الخاصية من وحي القرآن الذي لا يحده زمان ولا مكان.

ولقد حرص بديع الزمان النورسي على إظهار الخصائص الربانية للعدالة الإلهية، وعمل على إبراز تجلياتها في عالم المخلوقات ليبين ما تنبني عليه تصرفاتها في الدنيا من مآلات ونتائج في الآخرة، وهو يؤكد ذلك في مشيئة الله تعالى، والتي تقتضي بعدله الذي قامت عليه السموات والأرض، أن يكون هناك جزاء وعقاب، ينجم عنهما جنة ونار، وهذا من تمام العدالة الإلهية وكمالها، فيقول: "إن لمتصرف هذا العالم حكمة عامة عالية، بشهادات رعاية المصالح والفوائد في كل شيء، ودلالات الانتظامات والاهتمامات وحسن الصنعة في جميع المخلوقات. فهذه الحكمة الحاكمة في سلطنة الربوبية تقتضي تلطيف المطيعين الملتجئين إلى جناحها.. وكذا يشاهد إن له عدالة محضة حقيقية بشهادات وضعه كل شيء في الموضع اللائق، وإعطاء كل ذي حق حقه الذي يستعد له، وإسعاف كل ذي حاجة حاجته التي يطلبها - لوجوده أو حفظ بقائه- وإجابة كل ذي سؤال سؤاله. وبالخاصة إذا سئل بلسان الاستعداد أو بلسان الاحتياج الفطري أو بلسان الاضطرار.. فهذه العدالة تقتضي محافظة حشمة مالكيته وربوبيته، بمحافظة حقوق عباده في محكمة كبرى، مع أن هذه الدار الفانية أقل وأحقر وأضيق وأصغر من أن تكون مظهرا لحقيقة تلك العدالة، فلابد حينئذ لهذا الملك العادل والرب الحكيم ذي الجمال الجليل والجلال الجميل من جنة باقية وجهنم دائمة"(٢).

وهذا ما ينسجم مع نواميس الكون التي قدرها الله تعالى بدون زيادة ولا نقصان، منسوجة على منوال الحكمة والميزان، وهو ما يصطلح عليه بديع الزمان النورسي بالعدالة المطلقة التي تضع كل عضو من الكائن الحي في موضعه اللائق به، وتنسقه بموازين دقيقة حساسة.. وتراها تمنح كل عضو تناسقا لا عبث فيه، وموازنة لا نقص فيها، وانتظاما لا ترى فيه إلا الإبداع، كل ذلك ضمن جمال زاهر وحسن باهر، حتى تغدو المخلوقات نماذج مجسمة للإبداع والإتقان والجمال، فضلا عن أنها تهب لكل ذي حياة حق الحياة، فتيسر له سبل الحياة، وتنصب له موازين عدالة فائقة.. وفي الوقت نفسه تشعر قوتها وسرمديتها بما تنزل من عذاب مدمر على الطغاة والظالمين منذ عهد آدم عليه السلام. فكما لا تكون الشمس دون نهار، فتلك الحكمة الأزلية وتلك العدالة السرمدية لن تتحققا تحققا كليا إلا بحياة أخرى خالدة، لذا لن ترضيا

---

(٢) المثنوي: ص٩١.

أبدا، ولن تساعدا بحال من الأحوال على نهاية لا عدالة فيها ولا حكمة ولا إحقاق حق. تلك هي الموت الذي لا بعث بعده، والذي يتساوى فيه الظالمون العتاة مع المظلومين البائسين، فلا بد إذن أن تكون وراءه حياة أخرى خالدة كي تستكمل الحكمة والعدالة حقيقتهما. وبهذا يجيبنا إجابة قاطعة اسم الله الحكيم والحكم والعدل والعادل من الأسماء الحسنى عن سؤالنا حول الآخرة(٣).

إن الهدف من تركيز بديع الزمان النورسي على إظهار تجليات العدل الإلهي في المخلوقات كان واضحا في رغبته الملحة من أجل تحقيقه في الواقع، واقع عاشه بمرارة خاليا من العدالة، ومن ثم نجده يكرر في كل رسائله النورية هذا العبارة الحكيمة الجميلة {عدالة عالية غالية}، ونكاد نراها تتردد في الرسالة الواحدة من الرسائل عشرات المرات، لأنها الشعار الخالد الذي يتمنى بديع الزمان النورسي من كل أعماق قلبه لو أن قدرة خارقة مكنت له في واقع الحياة من النفوذ والتجلي لتتحسن أحوال المخلوقات والكائنات بإذن الله الحكم العدل. بل إنه الشعار الرباني الخالد الذي يعطي للحياة معناها الحقيقي، وينزلها المنزلة المستحقة من بين المنازل الزائلة والميادين الآفلة، ليمنحها الله عز وجل من حكمته الباهرة الماهرة، وعنايته الظاهرة الزاهرة، وعدالته العالية الغالية، ومرحمته الواسعة الجامعة، بدرجة يعرف باليقين من لم يكن على عينه غين ولا في قلبه رين، أنه ليس في الإمكان أكمل من حكمته، وأجمل من عنايته، وأشمل من مرحمته، وأجل من عدالته(٤). ولاشك أن بديع الزمان النورسي يوجه من خلال هذا الخطاب اللوم للإنسان عساه يرتدع عن الظلم، ويذكره بعاقبته التي تنتظره، ويخاطب في وجدانه ذرة الإيمان لعلها تكبحه عن ظلمه، فهل من مستجيب لمثل هذا النداء اليوم يرغب الناس في العدل الذي يملأ كل شيء، وليبعدهم عن الظلم وتبعاته التي تأتي على الأخضر واليابس. من أجل ذلك يرفع بديع الزمان النورسي من درجة هذا اللوم لتصل إلى وصف الإنسان بالغافل المغرور، إلى المتفكر المتحير، إلى الوهام، إلى الأبله والأحمق.. ثم يبصره بواقعه فيقول مخاطبا، وهو بذلك لا يستثني حتى نفسه من هذا اللوم، من شدة خوفه من الله تعالى، فيقول: "اعلم أيها الوهام إذا تهاجمت عليك الأوهام، فانظر يمينا لترى دوائر تصرف الخلاقية تتناظر متضايقة، من دائرة المجرة ومدار السيارات، متسلسلة إلى دائرة الجوهر الفرد

(٣) الشعاعات لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سنة ١٤١٤هـ، نشر دار سوزلر، فرع القاهرة: ص٢٦٤.

(٤) المثنوي: ص٩٩.

ومدار الذرات، ومن خلق السموات مسردة إلى خلق الثمرات، ومن إنشاء الأرض إلى إيجاد الأرضة الآكلة للشجرة، بتناظر وتشابه وتساند، تدل على اتحاد القلم ووحدة السكة، وأنت في وسط مخروط الكائنات قائم، حامل للأمانة، مقلد بالخلافة"[٥]. فكيف لمن كانت حاله هكذا، مع مسؤوليته بهذا الوصف أن يجد مجالا أو وقتا للظلم يشغله عن العدل الذي لو أفنى فيه عمره ما وسعه القيام بالواجب؟

ثم يعود شمالا ليوجه الخطاب لهذا الإنسان الغافل، وقد جرفته الأوهام، وزلت به الأقدام، فيبصره بالحقيقة ويقول: "ثم انظر شمالا لترى النظام العام يأمر بالعدل في كل شيء، وترى أن الميزان التام ينهى عن الميل في كل شيء"[٦]. فهل يسمع إنسان اليوم ما سمعه إنسان العهد النوري من توجيهات تبصره بالحق، وتهديه إلى الخير. لقد نظر بديع الزمان النورسي إلى واقع هذا الإنسان من حوله، وهو الواقع الذي يشبه واقع اليوم، فإذا هو يموج بالاضطراب والتقلقل والحيرة، فلو قدر الله أن ينظر اليوم لوجد الظلم والبغي، والفجور والفساد، ووجد سيلا من الفتن كقطع الليل المظلم يعج في كل مكان، ووجد الناس من حوله يجرون ويدبون ويتلفتون، كأن ليس منهم إلا لص أو مسلوب أو مجنون، وإذا الرغبات والشهوات تجمح فتمنع القلوب من الاطمئنان والاستقرار، ونعوذ بالله من هذا البلاء. وكيف يطمئن امرؤ لا يزال قلبه معلقا في مدرجة الرياح الهوج، ولا يزال تتناوحه تلك الرياح بالقوة الطاغية التي تعصف بالعالم، فما تفتأ تدوي المدافع والقنابل والرصاص والعنف والإجرام في كل زاوية من هذه الأرض التي يقولون عنها متمدنة ومتحضرة، ويقولون عنها حرة تنعم بحقوق الإنسان. إن العالم ليغلي بشروره وحسناته، على كثرة الشرور وقلة الحسنات. إنه عالم أشبه بقصر بديع، كما وصفه بديع الزمان النورسي، حل فيه الهرج والمرج، وقد وقع القتال في كل مكان، حتى في البيوت المقدسة التي هي موضع الأمن في عرف الإنسانية، وهي المساجد والكنائس..أفي مثل هذا الزمان يحلو الأمان؟.. أفي عصر العلم الحديث الذي بلغ من جلالة قدره وما أوتي من عظيم النعم لم يستطع أن يؤمن قلبا واحدا ويمنحه نعمة الراحة والاطمئنان؟.. لقد أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها، فلم يبق بعد الآن إلا أن يعرف الإنسان أنه، مع قدرته على الأرض وتصريف قواها واستخراج كنوزها، غير قادر على أن يستجلب لقلبه ساعة من

---

(٥) المثنوي: ص٤٠٦.

(٦) المثنوي: ص٤٠٠-٤٠١.

الأمن يرضى فيها عن نفسه، وترضى نفسه عنه؟ ألا وإن أهل الأرض جميعا في هذه الحيرة لينظرون إلى الغيب نظرة اليائس الذي كان له أمل ثم تقطع به، وما ظلمهم الله بعدله، ولكنهم حكموا في أنفسهم كل شهوة من شهوات المال والجاه والنساء والغلبة والفوز، ولم يضبطوها بشيء من ضوابط الحياة، فأصبحت الحياة كلها عدوانا وتقاتلا وتنابذا وشهوة، وليس في ذلك للحق والعدل وحدودهما بين الناس قدر تقف كل هذه الشهوات عنده. ثم ها نحن نفقد قيم العدالة التي تقود العالم إلى الخير والسعادة، فنصب الإنسان نفسه عدلا وحكما، واغتر بعلمه وقوته، وهذا هو عين الظلم، ظلم الإنسان لنفسه أولا ولمجتمعه ثانيا، ولربه أولا وآخرا. فليس يوجد في فطرة إنسان من عدل ومن حق إلا أن يكون عنده كتاب يهديه، يستجيب لأوامره وينتهي بنواهيه، ويكون هذا الكتاب هو الحق المبين الذي ميز للإنسانية خيرها وشرها، وصرفها على قدر من الحكمة والصواب، يؤول بها إلى المحبة والرضى والحرية والسعادة والاطمئنان. فليس لغرور الإنسان أن يستبدل بكتاب الله أي كتاب وضعي مهما بلغت حكمته وفلسفته، يعتريه الضعف والاختلاف والقصور، لأنه كتاب العقل الإنساني وليس الكتاب الذي هو وحي من رب العالمين، يدعو إلى دار السلام ويهدي إلى صراط مستقيم. ولا يكشف ذلك إلا أن يستقر في القلب صدق الوحي وصدق وقوعه لمن اختير من بين البشر ليكون نبيا ورسولا، يهدي إلى الحق، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور. ولمثل هذا قام الأستاذ الجليل الشيخ بديع الزمان النورسي يستلهم نور القرآن الكريم ويحمله على بساط رسائل النور عاليا ليضيء للناس طريق الهدى والخير، وينتشلهم من الظلم والظلمات. ولقد صاح بملء فيه في وجه الظلم والظالمين: "أيها الإنسان الظلوم الجهول اتق الشر ما استطعت.."(٧).

إنه يريد من الإنسان أن يتحرر من أنانيته ومن نوازعه الضيقة، وألا يكون من الذين لا يرون نفعهم إلا في الإضرار بالآخرين، ولا يستمتعون ببدانتهم إلا في هزال المحرومين، ويفسرون كل ما يحلو لهم حسب أهوائهم دون محاكمة عقلية، ويطلقون الكلام والمعاني جزافا دون ميزان ولا تقدير، ولا مراعاة ولا إنصاف.. إنه يريد من الإنسان أن يكون موضوعيا في نظرته إلى القضايا والأمور، سواء على مستوى الكلمة التي يلفظ بها، أو على مستوى الشهادة التي يتقلدها ويشهد بها، أو على مستوى الحكم الذي يحكم به ويصدر عنه، أو على مستوى العلاقة التي يقيمها ويعمل

---

(٧) المثنوي: ص٤٠٦.

داخلها.. يريد من الإنسان أن يخرج من نفسه كل النوازع الذاتية، وخاصة عند تحمل المسؤولية. وهذا ما أراد الله سبحانه وتعالى لعباده أن يربوا أنفسهم عليه، ليكونوا عدلا قائمين بالقسط شهداء لله به، مصداقا لقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَالله أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النِّسَاءِ : ١٣٥)

إن الإيمان يفرض على الإنسان المؤمن، كما بينت الآية الكريمة، أن يقوم بالقسط، أي بالعدل، والقيام هنا يمثل الموقف أو المبدأ، وهو أن يكون موقف المؤمن متصفا دائما بالعدل. وقد جاء القيام في الآية بصيغة المبالغة: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾، أي ليكن كل قيامكم في كل أحوالكم بالقسط، في علاقتكم بربكم، وبأنفسكم و بالآخرين من حولكم، وفي كل مواقفكم في الحياة، لأن الله تعالى أمر بالعدل في كل جوانب الحياة، سواء بين الأفراد أو بين الجماعات..

هذا الإنسان المؤمن القوام بالقسط الشاهد لله تعالى به على نفسه وعلى الناس، وعلى العالم هو الذي جعله بديع الزمان النورسي هدفا لمدرسة التكوين الذي حملته على عاتقها رسائل النور، لكن الواقع كان مريرا ومعقدا، وتطلب من التقنيات بقدر ما تطلب من التضحيات، لأن الجهاد يحتاج إلى إعمال الفكر والنظر، كما علمنا رسول الله ρ من سيرته العطرة، لذلك رأى بديع الزمان النورسي بفكره الثاقب أن يوظف من تقنيات الأسلوب القرآني منهج المثل في عرضه للحقائق وتجليتها للأفهام، لأن المثل لا حدود له في المكان والزمان، وحتى إن تأثر بهما في بعض الأحيان، فإن أثرهما يكون في الشكل لا في الجوهر. لقد ضرب لغياب العدل في حياة الناس أروع المثال، فإذا صورته في حاضر الناس اليوم لا تختلف عن ماضيهم الغابر والظاهر، فهاهو العالم اليوم، وكما شبهه بقصر يموج بفتن الظلم التي تحجب أنوار العدل، فتختل الموازين، ويأكل القوي الضعيف، وتتلاشى قيم العدالة والإنسانية، فيصور ذلك من خلال ضربه لمثل حكيم، كأنه صورة حقيقية ومعبرة تختلف في الزمان لا في المكان، وتتقارب فيها الأحداث وتبعاتها، ويشبه فيها اليوم البارحة. فها هو مثال القصر البديع الذي يضم مدينة واسعة تتداولها عوامل التخريب والتعمير[٨]، تتكرر مشاهده وأحداثه

---

(٨) اللمعات لبديع الزمان النورسي، تحقيق الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سنة ١٤١٣هـ، نشر دار سوزلر، فرع القاهرة: ص٥٢٣.

ووقائعه في هذا الزمان الذي يبعد من زمان بديع الزمان النورسي بمئات السنين. فالغليان والاضطراب والفوضى تعاود حياة الناس، فيتعطشون إلى حتمية العدل واستمراريته، وتشرئب أنفسهم وأعناقهم إلى تجلياته في الكون المتلاطم الأمواج، لتعترف بأن العدل هو أُسُّ الحياة الإجتماعية.

وعلى الرغم من التفاؤل الذي كان يعمر قلب بديع الزمان النورسي حتى صار مفعما به، وعلى الرغم من تبصره بهذا العالم الذي حل فيه الهرج والمرج، وتعرض للفساد، فامتلأت البحار بالأنقاض والجثث المتعفنة.. وعلى الرغم من تسميم البيئة حتى أصبح الهواء والأرض مستنقعا لا تطاق فيه الحياة... على الرغم من ذلك كله فإن بديع الزمان النورسي يتبصر بأن العدل هو الذي يسود، وسيسود دوما وأبدا، وما الظلم إلا ظلمات ستنكشف لا محالة بحلول الصباح، وعند الصباح يحمد القوم السرى، وكلما اشتدت الأزمات أذنت بالانفراج، مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشَّرْحِ : ٥-٦).

فعلى الرغم من ظهور الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، فإن الله وعد ، ووعده الحق، على لسان رسوله المصطفى الكريم سيدنا محمد بأن العدل هو الذي سيغمر الكون في نهاية المطاف، وينتشر وينتصر، وكل السنن الكونية العادلة بعدل الله عز وجل تبشر بذلك.

وقد ضرب النورسي لذلك أروع المثل حين قال: "ولكن على الرغم من كل مظاهر الاضطراب، فإن موازنة عامة وميزانا حساسا، وعملية وزن دقيق تسيطر في كل جوانب القصر ونواحي المدينة وتسود في كل أرجاء المملكة وأطراف العالم، وتهيمن عليها هيمنة.."[٩] وهذا ما يفسره ويؤكده في مواضع كثيرة من كلامه، فيقول: "إن العدالة العامة الجارية في الكون، النابعة من التجلي الأعظم لاسم العدل إنما تدير موازنة عموم الأشياء، وتأمر البشرية بإقامة العدل"[١٠].

أسلوب بديع الزمان النورسي في تمثيل العدل:

والله سبحانه وتعالى ييسر من عباده المؤمنين المخلصين من يكونون مفاتيح للخير مغاليق للشر في نطاق حكمته التي قضت بتسخير البشر بعضهم لبعض، مصداقا لقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا

---

(٩) اللمعات: ص٥٢٣.

(١٠) اللمعات: ص٥٢٦.

بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزُّخْرُف: ٣٢). فسخر الله سبحانه وتعالى عبده المجاهد بديع الزمان النورسي لخدمة الإيمان بالقرآن، لأنه هدى الله الذي يخرج به الناس من الظلمات إلى النور، فقرأه وتمثله، وفهمه واستوعبه، وفسره بما آتاه الله من حكمة وبيان، وبما وهبه من أسلوب بليغ جذاب، يحمل المعاني القرآنية وينفذ بها إلى أعماق القلوب، فتنشرح لها الصدور، وتتفتح لها العقول، وتنشط للعمل بها الجوارح، فتذعن النفوس للحق، وتسترشد بالهداية، وتستجيب لداعي كتاب الله وتطبيق أحكامه.

ولست هنا بصدد الحديث عن خصائص أسلوب بديع الزمان النورسي في رسائله، فهو أسلوب أرباب البلاغة وأمراء البيان بلا منازع، ولكن حسبي أن أقف عند قضية واحدة من الخصائص البديعة لأسلوب بديع الزمان، وهي خاصية ضرب المثل. ولئن كان ضرب المثل أسلوبا قرآنيا، فإن رسائل النور قرآنية الأسلوب والمعاني، لأنها تستمد خصائصها ومقوماتها من خصائص الأسلوب القرآني ومعانيه، فهي بهذا تفسير أدبي بياني رفيع المستوى ورائعه، غايته إثبات حقائق الإيمان الساطعة في القرآن الكريم بالحجة والبرهان، ورسالته الهداية إلى الحق واقتضاء صراط الله المستقيم، وهي بذلك تفسير رسالي يعتمد الأسلوب المشوق المدعم بالمثل المناسب، ولله المثل الأعلى.

ومن هنا وقفت عند المثل الذي ضربه الأستاذ بديع الزمان النورسي لصورة العدل في الكون، وهي صورة بليغة، بل غاية في البلاغة التصويرية، تكاد تكون مستقرة في كل زمان ومكان، بحيث لا تتغير إلا إذا تغير سلوك الإنسان، واهتدى بشريعة الرحمن التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ولا تتبدل ولا يؤثر فيها زمان ولا مكان إلا بما يصلح حياة الإنسان، ويطرد عنه الفساد والخسران. لهذا كان استلهام منهج القرآن الكريم هو الهادي إلى اعتماد بديع الزمان النورسي على ضرب الأمثال لتقريب المعنى وإقناع العقل والقلب به، يقول في هذا الصدد: "إن معرفة الله المستنبطة بدلائل علم الكلام ليست هي المعرفة الكاملة، ولا تورث الاطمئنان القلبي، في حين إن تلك المعرفة متى ما كانت على نهج القرآن الكريم المعجز، تصبح معرفة تامة، وتسكب الاطمئنان الكامل في القلب.. ثم إن معرفة الله التي استقاها الرازي من علم الكلام كما تبدو ناقصة وقاصرة في نظر ابن عربي، فإن المعرفة الناتجة عن طريق التصوف أيضا ناقصة ومبتورة بالنسبة نفسها أمام المعرفة التي استقاها ورثة الأنبياء من

القرآن الكريم مباشرة"[١١]. ويقول أيضا مبينا حقيقة الحصول على برد الإيمان وطمأنينة النفس والقلب: "ثم إن الإيمان لا يحصل بالعلم وحده، إذ إن هناك لطائف كثيرة للإنسان لها حظها من الإيمان، فكما أن الأكل إذا ما دخل المعدة ينقسم ويتوزع إلى مختلف العروق حسب كل عضو من الأعضاء، كذلك المسائل الإيمانية الآتية عن طريق العلم إذا ما دخلت معدة العقل والفهم، فإن كل لطيفة من لطائف الجسم – كالروح والقلب والسر والنفس وأمثالها- تأخذ منها وتمصها حسب درجاتها. فإن فقدت لطيفة من اللطائف غذاءها المناسب، فالمعرفة إذن ناقصة مبتورة، وتظل تلك اللطيفة محرومة منها"[١٢].

هكذا يربط بديع الزمان النورسي العدل بعلاقة الإنسان بربه وبنفسه وبمجتمعه، وما ذكره الله تعالى في سورة الحديد يؤكد أن كل الرسالات منذ آدم حتى نبينا محمد ρ كان هدفها واحد وهو إقامة العدل بين الإنسان وربه، وبين الإنسان ونفسه والناس من حوله، ولذلك جعل الله العدل ميزانا يزن الحق والباطل، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الْحَدِيدِ: ٢٥). والقسط كناية عن العدل، وهو الهدف من إنزال الكتب وإرسال الرسل، وهو دعوة كل الرسالات وركيزة كل الحجج والبراهين التي جاءت بها، والعدل كذلك هو الميزان الذي يزن به الله عز وجل مستوى القيم في النشاط الإنساني، فيعطي صاحب الحق حقه. وكل الظواهر الكونية تسير وفق عدل الله تعالى، فيكون لكل واحدة منها حق على الأخرى، فما له حاجة إلى الدفء والحرارة له حق على الشمس، وما له حاجة إلى الري له حق على المطر وعلى السحاب، وهكذا كل الموجودات لها حق وعليها، وهذا تقدير الله تعالى في الكون كله، حيث خلق كل شيء وقدره تقديرا، ثم أمر الناس بالقسط ليمتد العدل إلى الحقوق الخاصة والعامة بين الناس داخل المجتمع الإنساني في كل قضاياه التي تغطي حياتهم، سواء بين الإنسان وأخيه الإنسان، أو بين الإنسان والحيوان، أو بين الإنسان والبيئة. فعدل الإنسان مع الحيوان ألا يعذبه ولا يتركه يموت عطشا أو جوعا، وإذا أبيح له لحمه فعليه أن يحسن إليه في الذبح، وأن يحسن قتله في الصيد.. وأما عدل الإنسان مع البيئة، فيحرم عليه تلويثها لأنها المتنفس للناس الذي يضمن لهم سلامة حياتهم، والإضرار بها إضرار بكل الكائنات الحية. إلا أنه ما أكثر

(١١) المكتوبات لبدع الزمان سعيد النورسي، ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سنة ١٤١٣هـ، نشر دار سوزلر، فرع القاهرة: ص٤٢٤.

(١٢) المكتوبات: ص٤٢٦.

الظلم مقارنة بالعدل على وجه الأرض اليوم بعد انتشار الأسلحة الكيماوية والنووية والسموم والأضرار والمفاسد البيئية التي لم تعرفها الأمم السابقة. وكل ذلك بسبب الإعراض عن كتاب الله وبسبب التطفيف في الميزان اللذين أنزلهما الله عز وجل مقرونين مع إرسال الرسل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الْحَدِيدِ: ٢٥)، فالكتاب هو وحي الله تعالى كما هو معلوم، والميزان هو الذي يبين موازين الحق والباطل، والعدل والظلم، والخير والشر، ليقوم الناس بالقسط، أي بالعدل الذي يملأ الأرض، وهو العدل العالمي الشامل، لأن العدل والظلم هما كلمتان تختصران ما أراده الله تعالى في عالم الناس وما حرمه. وكل الرسالات جاءت لتقر بذلك في الأرض وفي حياة الناس ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية، ومن ثم ذكر الله تعالى الكتاب في موضع الرسالات، إشارة إلى توحيدها في الهدف الذي جاءت من أجله، ولأنه وحدة في جوهرها. وأنزل الميزان مع الكتاب ليقيم الناس عليه حياتهم في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة وتصادم المصالح والمنافع، ميزانا لا يحابي أحدا، لأنه يزن بالحق الإلهي، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع. يقول سيد قطب رحمه الله: "هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواطف ومصطخب المنافسة وحب الذات، فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة، ليقوم الناس بالقسط، فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته لا يهتدي الناس إلى العدل، وإن اهتدوا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه، وهي تضطرب في مهب الجهالات والأهواء"(١٣).

وإن الله تعالى ذكر من صفاته العلية المقسط، وربطها بالقوامة، فهو سبحانه وتعالى (قائم بالقسط)، والإيمان الذي جاءت رسائل النور لإنقاذه من التلف وإحيائه من جديد هو الإقرار لله سبحانه وتعالى بخاصية القوامة على البشر، وهي الصفة التي تجمع بين الألوهية والربوبية، بلا شريك ولا عديل، فالله تعالى هو مالك الملك، المتفرد بالجبروت والملكوت. ومن ثم كان الإسلام حقيقة هو الاستسلام والطاعة لمقتضيات هذه الصفات الربانية، وهي إفراد الله سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية والقوامة على الوجود كله بجميع مخلوقاته، والاعتراف بسلطانه عز وجل المتمثل في قدرته

(١٣) في ظلال القرآن لسيد قطب، الطبعة الشرعية الثامنة، سنة ١٣٩٩هـ، دار الشروق، بيروت: المجلد السادس، ص٣٤٩٤.

وحكمته. وهكذا يكون الإسلام شريعة الله اعترافا بألوهية الخالق وبربوبيته وبقوامته وعدله وسلطانه، فلا شريعة غير شريعة الله، أفضل الشرائع وأقومها وأعدلها: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الْمَائِدَة: ٥٠). وهذه هي شريعة الله التي تمثل منهجا شاملا متكاملا للحياة البشرية، والله تعالى قائم فيها بالقسط لعلمه بحقيقة الإنسان وحاجاته، وبحقيقة الكون الذي يضمه، وبطبيعة القوانين التي تحكمه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأَنْعَام: ٣٨)، فهو سبحانه لا يفرط في شيء من أمور المخلوقات في الوجود كله، فلا يقع فيه شيء متناقض أو متصادم لأن الله تعالى خلق بعدله التوازن والاعتدال والتوافق والتناسق، الأمر الذي لا يمكن أن يتأتى للبشر مهما دق منهجه الذي لا يهديه إلا إلى ظاهر من الأمر مما يعلمه من علم الله الواسع: وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يُوسُف: ٧٦). فلا يمكن لمنهج غير منهج الله جل جلاله أن يسلم من النقص والعيب، لأنه المنهج الإلهي القائم على العدل المطلق، والله تعالى عليم بم يتحقق العدل وكيف يتحقق، فهو وحده سبحانه العدل، وعدله مبرأ من الميل والهوى والضعف، ومبرأ من الجهل والغلو والقصور والتفريط والإفراط، وهذا ما لا يتوفر أبدا في أي منهج أو في أي شرع من صنع الإنسان صاحب الشهوات والميول والنقائص والعيوب البشرية، سواء كان فردا أو جنسا. إنه منهج العدل الإلهي المتناسق مع ناموس الكون كله، لأن صاحبه هو خالق الكون والإنسان وجميع المخلوقات. ومن هنا يقع العدل الذي ينظم الحياة الإنسانية في انسجام مع الكون بمن فيه وما فيه. وهذا هو المنهج الذي يحرر الإنسان من كل عبودية لغير الله، وهو منهج الإسلام الذي يصفه الشهيد سيد قطب بالتوحيد، فيقول: "والإسلام حين يجعل الشريعة لله وحده، يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ويعلن تحرير الإنسان، بل يعلن "ميلاد الإنسان". فالإنسان لا يولد ولا يوجد إلا حيث تتحرر رقبته من حكم إنسان مثله، وإلا حين يتساوى في هذا الشأن مع الناس جميعا أمام رب العالمين"(١٤). وهذه هي حقيقة العدل والمساواة عند الله رب الناس أجمعين، وهي الدليل إلى الصلاح، لأن العدل قرين الصلاح، وإذا غاب أحدهما زال عنه الأخر، وحل محلهما الفساد وتحكمت الأهواء وتضاربت المصالح، فعم الجور والظلم، وتحول الناس إلى أسياد وعبيد، ومحيت مفاهيم الحرية والمساواة من سلوكهم، وفر الإيمان من قلوبهم لأنها فسدت بالأهواء، قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ

---

(١٤) في ظلال القرآن: المجلد الثاني، ص٣٩١. وص ٨٨٩-٨٩٣.

لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (الْمُؤْمِنُونَ: ٧١). ولكن العدل اسم من أسماء الله الحسنى، فإن تأثر العدل البشري بما يصدر من البشر من أهواء وميول وشهوات جامحة، فإنه يبقى الضمان الثابت والأكيد في عدل الله المطلق، لأن العدالة الإلهية لا تقتصر على الدنيا بل تتعداها إلى يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وهذا هو العدل الذي يقوم على أسس الإيمان الحق بالعادل الذي هو الله سبحانه وتعالى، والذي عم عدله السموات والأرض، وشاع منه نور الهداية، فاسترشد به المومنون الذين عدلوا، فسماهم الله تعالى مقسطين، وأحبهم بحبه لقسطهم، فقال عز وجل: وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الْمَائِدَةِ: ٤٢)، وقال تعالى مخاطبا عباده وآمرا إياهم بالقسط: وَأَقْسِطُوا إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الْحُجُرَاتِ: ٩)، وهو الذي أقام حكمه المطلق بالقسط، وأعطاه قوامة القسط، وهو العدل المطلق أيضا، فقال تعالى: ﴿شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ١٨). وتدبير الله لهذا الكون ولحياة الناس مرتبط دائما بالقسط، وهو العدل، فلا يتحقق العدل المطلق في حياة الناس، ولا تستقيم أمورهم استقامة أمور الكون التي يؤدي كل كائن معها دوره في تناسق مطلق مع دور كل كائن آخر، لا يتحقق هذا إلا بتحكيم منهج الله الذي اختاره لحياة الناس وبينه في كتابه، وإلا فلا قسط ولا عدل، ولا استقامة ولا تناسق، ولا تلاؤم بين دورة الكون ودورة الإنسان، بل هو الظلم إذن والتشتت والضياع.

وها نحن أولاء نرى على مدار التاريخ أن الفترات التي حكم فيها كتاب الله وحدها هي التي ذاق فيها الناس طعم القسط، واستقامت حياتهم استقامة دورة الفلك.. وحيثما حكم في الناس منهج آخر من صنع البشر، لازمه جهل البشر وقصور البشر، كما لازمه الظلم والتناقض في صورة من الصور، ظلم الفرد للجماعة، أو ظلم الجماعة للفرد، أو ظلم طبقة لطبقة، أو ظلم أمة لأمة، أو ظلم جيل لجيل.. وعدل الله وحده هو المبرأ من الميل لأي من هؤلاء، وهو إله جميع العباد، وهو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، (لا إله إلا هو العزيز الحكيم)، والعزة والحكمة صفتان لازمتان للقوامة بالقسط. فالقسط يقوم على وضع الأمور في مواضعها مع القدرة على إنفاذها[١٥]..

(١٥) في ظلال القرآن: المجلد الأول، ص٣٧٩.

وقيام الله تعالى بالقسط فيه الإقرار بالعدل الإلهي، وهو الإقرار بالقوامة الربانية، (قائما بالقسط)، بلا شريك. والقرآن يفصل في ذلك فيبين بأن الله هو الخالق، خلق الكون، وخلق الإنسان وسخر له الكون ببره وبحره وسمائه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الْجَاثِيَةِ: ١٣). وبأن الله هو المالك لأنه هو الخالق، ولا يمكن أن يكون المالك في الكون غير الخالق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ (التَّوْبَةِ: ١١٦). وبأن الله هو الرزاق فلا يملك أحد أن يرزق نفسه أو غيره شيئًا، لا من كثير ولا من قليل: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذَّارِيَاتِ: ٥٨). وبأن الله هو الواحد صاحب السلطان المتصرف في الكون والخلق، لأنه هو الخالق وهو المالك وهو الرزاق، فهو صاحب القدرة الإلهية التي لا يكون بدونها خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضر. وهو سبحانه الواحد الأحد الفرد الصمد، المتفرد بالعظمة والسلطان في هذا الوجود الذي أنعم على الناس به.

وكل هذا الإقرار لله تعالى يتطلب الإيمان بصفاته العلى وأسمائه الحسنى وبمعانيها المتجلية في الكون، وقد قيض الله تعالى رجالا من عباده ليبينوا للناس هذه المعاني المنبثقة من أسماء الله الحسنى، ويثبتوهم على الإيمان الراسخ بها، ويأخذوا بأيديهم وبنواصيهم إلى الهدى ودين الحق، ولينقذوهم من براثن الجهل والكفر. وهذا ما سخر الله له بديع الزمان النورسي الذي طفحت غيرته على عباد الله من أن يلتهمهم الكفر والضلال، فطلع على الناس برسائل النور في زمن كاد فيه الظلم والظلام يأتيان على الأخضر واليابس، فبعث الله بها في الناس حياة الإيمان، وأنقذهم الله على يد هذا الرجل من الضياع والتيه، ومن الحيرة والضلال. وانطلقت رسائل النور تجدد الإيمان في القلوب وتشعل فيها اليقين في الله بعد أن انطفأ أو كاد، واتخذ لها الأستاذ بديع الزمان منهج الأسلوب القرآني في عرض مفاهيم الإسلام وترسيخ أركانه ومبادئه، وأعمل خدمته القرآنية التي كانت منهج حياته في إيقاظ نعمة الإيمان في فطرة الإنسان، لأنه كان يعلم أن الفطرة لا تتغير، وإنما يصيبها العمى والصمم، ويتلبد فوقها الران، فتتبلد ولا تستطيع أن تتنفس رحمة الهداية أو تتنسم عبير الإيمان. وإن الفطرة هي الإسلام، لأنه الدين الذي يولد عليه كل مولود من بني آدم عليه السلام، وفطرة الإسلام نور يزهر بالإيمان المتوقد في القلب، فإذا خبا انطفأ نور الإسلام وفقدت الجوارح هدايتها فضلت الصراط، فلا تأتمر بأوامر ولا تنتهي بنواه. وهذا هو الطريق المظلم الذي يحرص بديع الزمان النورسي على ألا يسقط فيه الإنسان، فيعمل جاهدا

على استثمار قدراته الفطرية ومداركه الحسية لتعميق جذور الإيمان وإذكائها باستمرار لتعمل دون تعثر أو توقف أو فتور.

العدل والاعتدال: الوسطية

ويرتبط العدل في منظور بديع الزمان النورسي بالاعتدال، وهو رباط قوي ومتلازم، ليس من باب التوافق اللفظي، حيث تشترك كل مفردة منهما مع الأخرى في الاشتقاق، بل من هذا الباب، ومن باب المعنى والجوهر أيضا. إذ العدل يؤدي إلى الاعتدال حكما وممارسة، والله تعالى يقرر ذلك فيقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البَقَرَة: ١٤٣). وكلما ساد العدل حصل الاعتدال في المواقف والسلوكات، فتطمئن النفوس، وتستقر الأوضاع، ويعم منهج الوسطية الذي يعتمد الاعتدال في الأقوال والأفعال، وتتحكم مقاييس العقل السليم والمنطق القويم، فيؤمن الناس بالقدر، ويتقبلون تقلبات الزمان، وهفوات البشر وعثراتهم بغير قصد، ويغفرون ما كان منها بقصد، لأن العدل حينئذ هو الحكم بين الظالم والمظلوم، وهذا ما جاء به معنى الحديث الشريف الذي يقول فيه الرسول ρ : "أنصر أخاك ظالما أو مظلوما"(١٦)، بأن ترده عن غيه في حالة الظلم. أما في حالة انعدام العدل، فإن الأمر يفضي إلى الغلو والجنوح عن الفطرة، وغالبا ما يكون ذلك تحت وطأة الظلم، فيلجأ المظلوم إلى دفعه إحقاقا للحق. لكنه قد يخرج عن السيطرة والتحكم إلى التخبط، فيلجأ صاحبه إلى العنف والانتقام والتطرف. ولذلك قال الحكماء: "العدل أساس الملك"، لأن به تستقر المجتمعات وتطمئن النفوس، وتسلم حياة البشر، فيريح الله البلاد والعباد من المجرمين وأهل الفساد. والعدل يفتح المجال للحريات المتنوعة، فتبدع العقول، وترتفع المعنويات، وتفجر الطاقات، فيتحمس الناس للعمل والإنتاج، فيتوسع الرزق وتتوزع مكاسب التنمية بين الجميع، وتضيق الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وتتقارب الآراء، وتعالج المشاكل، ويحارب الفساد بكل أشكاله، وتصبح مفاهيم العدل ضابطا يحكم سلوك الناس وتصرفاتهم، وتدير موازنة عموم الأشياء، كما يسميها بديع الزمان النورسي، وتأمر البشر بالقسط وبإقامة العدل. ولهذا جاء ذكر الميزان أربع مرات في سورة الرحمن، لأهمية الميزان البالغة ولقيمته

---

(١٦) الحديث في صحيح البخاري، كتاب المظالم والغضب، باب: أنصر أخاك ظالما أو مظلوما. وهو حديث رواه حميد عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ρ: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما قالوا يا رسول الله هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما قال تأخذ فوق يديه".

العظمى في الكون، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ*وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنِ : ٧-٩). نعم، فكما لا إسراف في شيء، فلا ظلم كذلك ظلما حقيقيا في شيء آخر، ولا بخس في الميزان قط.. بل إن الرحمة الإلهية والحكمة الربانية اللتين تحافظان على حق حياة بعوضة ضعيفة محافظة تتسم بالرحمة الواسعة، لا يمكن أن تضيعا حقوق جميع ذوي الشعور غير المحدودين، وتهضما حقوقا غير متناهية لموجودات غير محصورة(١٧).

العدل والفعالية:

كلما تمكن العدل في أرض ظهرت فعالية أهلها وفلاحهم، وكلما ضمر سلطان العدل انحرف الناس تجاه التخلف والانحطاط. وهذه سنة كونية مطردة لا جدال فيها، لأن غياب العدل مدعاة للتخلف والفساد. وهذا ما جعل الرسول ρ يتخوف من انصراف الناس عن العدل، فحذر صحابته في حديثه المشهور بحديث القصعة(١٨) من التفريط في العدل، لأنه أساس التمكين في الأرض، وكل تفريط فيه يجر إلى التفريط في الإيمان ثم التفريط في الدين بكامله، فيتحول المجتمع إلى مجتمع متخلف عاجز، كلّ على غيره من المجتمعات. وهذا أمر طبيعي لأن العدل مرادف للفعالية والحيوية والإيجابية، فإذا غاب عن الوجود ظهرت مكانه السلبية والكسل والجمود، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النَّحْلِ: ٧٦). وقد كان الرسول ρ يرى أمام ناظريه المثال الحي في مجتمع جاهلي متخلف يعيش على الفوضى، فلما اعتنق الإسلام والتزمه، تحول إلى مجتمع فعال ونشط يأمر بالعدل ويعمل بمقتضاه. لكن الصحابة، وهم يستمعون إلى حديث القصعة، تعجبوا من كلام النبي ρ، لأنهم لم يفهموا عنه كيف يمكن أن يحدث ذلك، إذ من عادة الإنسان غالبا أن يتصور استمرار الحالة التي هو فيها ونسيان الحالة الماضية. إلا أن صحابيا مثل أبي الدرداء رضي الله عنه ذكر هذا

---

(١٧) اللمعات: ص ٥٢٦-٥٢٧،

(١٨) حديث القصعة هو الذي أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، رقم ٤١٢٩، ونصه: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت".

الموقف عند فتح قبرص فبكى حين فرح المجاهدون والناس بالفتح، فانزوى في معزل عن الناس الذين غمرتهم الفرحة والنشوة بالنصر، وأمضى تأمله في حال القبارصة حتى أبكاه ذلك، وغمه هذا الموقف، لأنه استحضر يومها حديث رسول الله ρ، ورأى بعين البصيرة من تحول النعم إلى نقم أن الطغاة في قبرص كانوا مغترين بملكهم ونعيمه وكانوا في غفلتهم سادرين، فتحولوا إلى أذلة صاغرين في قبضة المجاهدين. فحينها تذكر أبو الدرداء حديث القصعة فبكى بكاء مرا من أن يصبح المسلمون في يوم من الأيام غثاء كغثاء السيل، لا إيمان عندهم ولا عدل بينهم، فيسقطوا في مثل هذا الموقف الذي سقط فيه أهل قبرص.

إن التحول من العدل إلى الظلم هو تحول من الفعالية إلى العجز، وهو الذي كان موضع عناية الرسول ρ الذي حملته الأحاديث، وهي تحكي تخوفه ρ من هذا التحول الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لله أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ (الزُّمَر: ٨). وهذا ما كان يدفع الرسول ρ إلى التحذير من تحول الحال وتغيرها في الأجيال المتتابعة، وعلى هذا قوله ρ:"خير القرون قرني ثم الذين يلونهم"[١٩]. فهذا الحديث يشير إلى جزء من مرحلة، وهي كيفية التحول من الفعالية إلى العجز على مر القرون. ولكن هذا جانب من عملية دورة المجتمع لا يفهم منه قط أن يستمر هذا الانحدار كما جاء في حديث آخر حين سئل ρ: "أو ليس بعد ذلك الشر من خير؟"، فقال: "نعم". وهذا دليل خضوع التحول للسنن ولتدخل جهد البشر في تعجيله أو منعه سلبا وإيجابا. ولهذا فسر رسول الله حديث القصعة لصحابته الذين ربطوا سبب العجز بالقلة حين أشاروا إليه بوضوح، فقالوا: "أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟"، فنفى ذلك وقال: "بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل". فنفى قلة العدد التي فسر بها الصحابة الوضع، وأثبت جانبا آخر، وهو نوعية الإنسان وحالته في الفعالية. وزاد في شرح ذلك حين نسب هذا العجز إلى القلب وساقه إلى منبعه الأصلي وعلته الأولى، وهو النظر الخاطئ الذي يجعل الإنسان يستكين إلى الدنيا ويطمئن إليها دون تمييز بين حياة الذل وحياة الكرامة. فبين رسول الله ذلك وقال: "ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت". فهذه

---

(١٩) الحديث في البخاري: كتاب المناقب، باب فضائل الصحابة.

النظرة الشائكة تزين الحياة، أي حياة كانت، كما قال الله عن قوم استكانوا إلى الدنيا[٢٠]:﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ (البَقَرَةِ : ٩٦) فحين يغيب العدل من سلوك الإنسان يسهل عليه ظلم نفسه وظلم الآخرين، وينغلق فهمه فلا يعتبر ولا يستفيد مما حوله ولا يفيد، لأن الغثاء لا طائل من ورائه.

العدل باب الدعوة إلى الله:

وبالعدل يدخل الناس في دين الله أفواجا، لأنهم يلوذون إلى الأمان والاستقرار. أما الظلم فيمنع الحق ويقطع الطريق على الناس، ويمنعهم دون الدخول في دين الله، بل يكرههم على الخروج من صراط الله ويبعدهم عن دينه، وقد روي كمثال على ذلك أن الحجاج بن يوسف الثقفي سمع قارئا يقرأ قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النَّصْرِ: ١) فحرف قول الله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا﴾، فقرأها: ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجا. فقال له الحجاج: ويلك، يدخلون في دين الله لا يخرجون. فأجابه قائلا: حين نزلت الآية كان الناس يدخلون، أما في زمانك فهم يخرجون[٢١]. هكذا يغيب العدل فيصير الظالمون فتنة للناس بظلمهم، ويحولون دون دخولهم في دين الله. أما العدل فهو باب الدعوة إلى دين الله المشرع على مصراعيه.

العدل والتسخير:

إننا نتعامل مع الناس من خلال مخلوقاته، ومن خلال النظام الذي بثه في الكون والتاريخ، وبذلك نطمئن لمشيئة الله تعالى لأننا نعرف كيف نتعامل مع الله، ونتعرف بذلك على اسمه الأعظم الذي إذا دعونا به حصلت الاستجابة، ونتعرف على سنن الله ونسير وفقها. وهذا هو محض الإيمان الذي تفتقر إليه الأقوام غير المسلمة، والتي لا تومن بعدل الله، ولا بقدره وقضائه. وخذ مثالا على ذلك من الحضارة الغربية، كم قدمت من أشياء كبيرة وهائلة، لكن الغربيين لم يتعاملوا مع الله تعالى التعامل الصحيح، لقد سخروا الكون، لكنهم سخروه لأنفسهم فقط، وسخروا البشر لخدمتهم ظلما وعدوانا لا عدلا وإكراما، وهذا من أكبر النقائص التي وقعوا فيها، فاستحقوا

(٢٠) الإنسان كلا وعدلا لجودت سعيد، الطبعة الأولى لسنة ١٤١٤هـ منشورات دار الفكر المعاصر، بيروت: ص ٢٥-٢٦.

(٢١) رياح التغيير لجودت سعيد، الطبعة الأولى لسنة١٤١٦هـ، منشورات دار الفكر المعاصر، بيروت: ص ١٦٠.

بذلك الكفر، وقد عرف الله تعالى الكفر بالظلم، فقال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البَقَرَةِ : ٢/٢٥٤). والكفر، وكذلك الشرك هو ظلم العباد، وهؤلاء الغربيون لا يدركون العواقب الوخيمة لأعمالهم لأنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الرُّومِ : ٣٠/٧)، ولكن العدل بين الناس هو الضمان للنتائج بعيدة المدى والمفيدة لكل البشر. لقد نور الغربيون العالم بالكهرباء والاختراعات، لكنهم جعلوه مظلما بظلمهم، وهذا محض الظلم وأكبره. والله تعالى يراقب في الأمم مقدار عدلها قبل اختراعاتها، فضلا عن أن أغلب هذه الاختراعات هو مدمر للإنسانية أكثر منه نافع لها، يقول الله عز وجل: ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأَعْرَافِ: ١٢٩)، والعدل أقدس ما نزل من السماء، وبه قامت السموات والأرض. وبالعدل كان العالم الإسلامي القوة العظمى في العالم لفترة تزيد على ألف سنة، وحتى الآن لا تتجاوز فترة ازدهار الحضارة الغربية أربع مئة سنة، ومع ذلك ففي هذه الفترة التي لم تبلغ نصف الزمان الذي حكم فيه المسلمون العالم، صار الذين نقول عنهم مشركين يقودون العالم اليوم[٢٢]، لكن إلى الهاوية. لذلك يعيش الظلم بين الناس حرا طليقا، في حماية هؤلاء المشركين الذين يدعون الحرية والمساواة، ويتبجحون بحقوق الإنسان، وغيرها من المصطلحات الجوفاء، الخالية من كل صدق وحقيقة، والتي ستشهد عليهم بها جوارحهم وتحاجهم بها عند الله عز وجل غدا يوم القيامة، لأنهم كذبوا وما قالوا حقا، وهم لا يتورعون عن الكذب، لأنهم مشركون لا يومنون بالحق، فهم إذن ظالمون بشركهم وبزيفهم، وقد قرن الله تعالى الشرك بالظلم لأنه من جنسه، وهو أعظم الظلم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لُقْمَانَ: ١٣). ويقول جودت سعيد واصفا المجتمع الغربي في سلوكه وتعامله أحسن الوصف: "إن الغرب يتعامل مع سنن الله المادية تعاملا عظيما، ولكنهم يتعاملون مع السنن النفسية ومع سائر البشر تعاملا حيوانيا بهيميا، إنهم لا يعدلون بيننا، وإن كانوا فيما بينهم يعدلون"[٢٣].

الصورة الأبدية للعدل في تصور بديع الزمان النورسي:

إن السابقين من أولي الألباب والبصائر كانوا يتحسسون الأوضاع الراهنة، لأنهم عاشوا زمانهم بمنطق الحياة الأبدية التي لا تنفصم عراها في محطة زمنية عما يسبقها

---

(٢٢) رياح التغيير لجودت سعيد: ص١٦٢-١٦٣.

(٢٣) رياح التغيير لجودت سعيد: ص ١٦٥.

وعما يلحقها، فهم يعيشون موصولين بالماضي والحاضر والمستقبل، مقتدين برسول الله ρ في النظر إلى المستقبل من خلال معطيات الحاضر. وقد أحس بديع الزمان النورسي-وهو واحد من هؤلاء السابقين من أولي الألباب والبصائر- أحس من خلال إحساس مسبق بقلاقل الحرب العالمية، وأنها لن تقف عند الثانية ولا ما بعدها إلا بإحقاق الحق والعدل، فمادامت بوادر الظلم باقية في الإنسان، فلن تهدأ أوضاع العالم، وسيمتحن العدل، وسيؤدي ثمن هذا الامتحان كل العاضين على دينهم بالنواجذ، القابضين على الجمر، المحتسبين لله. يقول بديع الزمان بمرارة تطبع كل كلماته المعبرة عن هذا الإحساس: "ثم تراءى لي عالم الإنسان كشاشة سينمائية، فأنعمت النظر فيه بمنظار أهل الضلالة، وإذا به عالم مظلم مرعب.. لم أتمالك معه نفسي، فأطلقت صرخة ألم من أعماق قلبي قائلا: واأسفاه! ذلك لأن آمال الناس وأمانيهم الممتدة إلى الأبد، وتصوراتهم وأفكارهم المحيطة بالكون، وتطلعاتهم الجادة واستعداداتهم الفطرية التواقة إلى الخلود والجنة والسعادة الأبدية، وقواهم الطليقة غير المحددة فطريا، واحتياجاتهم المتوجهة إلى غايات ومقاصد لا منتهى لها، وتعرضهم – مع ضعفهم وعجزهم- لهجمات ما لا يحصى من المصائب والأعداء.. مع كل هذا، لهم عمر جد قصير، ويحيون حياة ملؤها الصخب والقلق، يذوقون مرارة الموت كل يوم بل كل ساعة، يقاسون ضنك المعيشة في حياتهم، ويتجرعون آلام الفراق والزوال التي هي أوجع للقلب وأثقل على الوجدان، فضلا عن أنهم ينظرون إلى القبر والمقبرة نظر أهل الغفلة، وكأنه باب إلى ظلام سرمدي، يرمون في غياهبه فردا فردا وطائفة إثر طائفة!"(٢٤).

لكن، وبالرغم من هذا الظلام الدامس، فإن من عادة بديع الزمان النورسي ألا يستسلم لليأس، لأنه يعتبره الداء القاتل للأمم والشعوب والأفراد، وهو المانع من بلوغ الكمالات، وهو شأن الجبناء والسفلة والعاجزين وذريعتهم، وليس هو من شأن الشهامة الإسلامية قط(٢٥). بل إنه يحيا دوما بالأمل، والأمل عنده هو شدة الاعتماد على الرحمة الإلهية والثقة بها. ولذلك يقول: "وهكذا.. ففي الوقت الذي رأيت عالم الإنسان غارقا في مثل هذه الظلمات، وإذ أنا على وشك الصراخ من أعماق قلبي وروحي وعقلي، بل بجميع ذرات وجودي، إذا بالنور المنبعث من القرآن والإيمان

(٢٤) صيقل الإسلام لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية لسنة ١٤١٦هـ، نشر دار سوزلر، فرع القاهرة: ص ٥٠٥.

(٢٥) الخطبة الشامية: ص ٤٤-٤٥.

الراسخ الناشئ منه يحطم ذلك المنظار المضل، ويهب لعقلي بصرا نافذا أرى به الأسماء الإلهية الحسنى، وقد أشرقت كالشمس ساطعة من بروجها.. فأضاءت بنورها الباهر عوالم كثيرة داخل عالم الإنسان المظلم، وحولتها إلى عوالم مشرقة بهيجة، كما بددت تلك الحالات الجهنمية بما فتحت من نوافذ إلى عالم الآخرة، حتى نثرت الأنوار إلى جميع جوانب ذلك العالم البائس للإنسان، فقلت: الحمد لله.. الشكر لله.. بعدد ذرات العالم، ورأيت بعين اليقين وعلمت علم اليقين أن الإيمان حقا جنة معنوية، وأن في الضلال جحيما معنويا أيضا في هذه الدنيا ذاتها"(٢٦).

الخاتمة:

وإذا ما ذهبت أستقصي المجالات التي امتد إليها تفكير بديع الزمان النورسي لمعالجة قضايا العصر الراهن، ومنها قضية العدل كدعامة من دعائم الإيمان، وكركن من أركان المجتمع المسلم الموحد المحكم للقرآن، فسيرى القارئ بأن ما من مجال من مجالات البحث والدراسة في رسائل النور إلا ويشهد بنظرته الثاقبة والفاحصة للأمور، والدالة على صلاحية معالجتها لأوضاع العالم الراهنة. وقد يتخيل القارئ أحيانا، وهو يتمعن حديث بديع الزمان النورسي في الرسائل عند تشخيصه لأوضاع العالم ولتصرفات الناس، وكأنه حاضر يسمع ويرى ويحس، ويخاطب في الناس عقولهم ووجداناتهم، يلتمس لهم من الله الهداية والاستقامة على الصراط .

واستحضارا لهذا الحدس، ومن هذا المنطلق الإيماني لهجت قريحة الأستاذ الجليل إحسان قاسم الصالحي، مترجم الرسائل إلى العربية، لهجت قريحته بالحمد والشكر لله بلا منتهى على أن سخر رسائل النور، وجعلها ترياقا شافيا لجروح عصرنا الدامية، ومعجزة معنوية من معجزات القرآن الحكيم، ولمعة من لمعاته. فلقد استطاعت بموازناتها العديدة أن تحارب أشد المعاندين المتعنتين بسيف القرآن الألماسي، وتنصب الحجج وتقيم الأدلة على الوحدانية الإلهية وحقائق الإيمان بعدد ذرات الكون...إن موازنات الكفر والإيمان، ومقايسات الهداية والضلال التي تشتمل عليها رسائل النور، تثبت بالمشاهدة هذه الحقيقة المذكورة.. وتثبت جيدا أن حقائق القرآن هي التي تستطيع قطع دابر الإلحاد وعناد أهل الضلال المتمرد في زماننا هذا واستئصال شأفتيهما(٢٧). وهذه عادة عند بديع الزمان النورسي في الاستبشار خيرا، فهو

---

(٢٦) الخطبة الشامية: ص١٦.

(٢٧) الخطبة الشامية: ص١٩-٢٠، من مقدمة الخطبة للأستاذ سعيد النورسي.

يرى المستقبل الزاهر للإسلام، وللإسلام وحده لأنه الدين عند الله، وهو الرسالة السماوية الخاتمة التي بشرت بها جميع الأنبياء والرسل، ويرى أن الحكم في الإسلام لن يكون إلا لحقائق القرآن والإيمان، لذا علينا- كما يقول دائما- الرضى بالقدر الإلهي، وبما قسمه الله لنا، إذ لنا مستقبل زاهر، وللأجانب ماض مشوش مختلط، فهذه دعواي لي عليها براهين عدة[٢٨]..

وأختم العرض بهذا الرسم البياني، لألخص فيه منهج بديع الزمان سعيد النورسي في اعتماده على ضرب المثل للبرهنة على الحقائق الإيمانية التي يستعملها في معالجة قضايا المجتمع والعصر، من خلال الوظيفة القرآنية التي تقوم بها رسائل النور في التشخيص والعلاج:

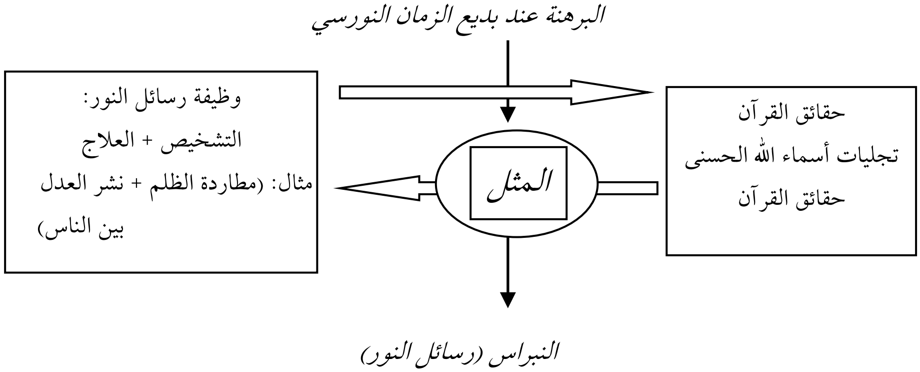

مراجع:

- رسائل في النفس والمجتمع لجودت سعيد
- في ظلال القرآن لسيد قطب
- كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي
- موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف لمحمد فؤاد عبد الباقي.

(٢٨) الخطبة الشامية: ص ٢٥.